

العشائر السورية لاعب مهم مزقته الصراعات

خليفة خضر

على الرغم من عدم التركيز على دورها السياسي والاجتماعي، إلا أن القبائل والعشائر العربية السورية - خاصة في منطقة شرق وغرب الفرات وفي شمال سوريا - تمثل لاعباً مهماً بين الأطراف المتنازعة في سوريا، حيث تمكنت في بعض اللحظات من تغيير معادلات الصراع في مناطق متعددة. خلال السنوات الثماني الماضية غيرت القبائل والعشائر ولاءها، مراهنة على من يمتلك القوة السائدة ومن يحم مصالحها.

ترى بعض القبائل والعشائر في النظام السوري حليفاً معروفاً ساندهم في الماضي ضد الأكراد. في حين أن بعضاً آخر انضم لمجموعات معارضة للنظام، وهناك جزء آخر انضم لتنظيمات تُعتبر إرهابية. الآن، تدخل الحرب مرحلة جديدة، حيث يحاول فيها اللاعبون الكبار (تركيا، والنظام وحلفاؤه، والولايات المتحدة) ضمان دعم القبائل والعشائر لاستقرار المناطق التي يسيطرون عليها، بينما تريد القبائل ضمان وجودهم ضمن معادلة الحل النهائي.

مشهد معقد

عقد ما يسمى المجلس الأعلى "للقبائل والعشائر العربية" مؤتمره الأول في مدينة أعزاز شمالي حلب في 21 ديسمبر/كانون الأول الماضي. شارك في هذا المؤتمر أكثر من 100 عشيرة وقبيلة من عرب وكرد وتركمان ومسحيين وعلويين ودروز. جاء المؤتمر نتيجة لاجتماعات مكثفة بين ممثلي هذه العشائر في تركيا. ويهدف تشكيل هذا المجلس إلى تكوين كيان موحد، يمكن أن يكون فاعلاً في المفاوضات السياسية المتعلقة بمستقبل سوريا. فقد أعلن المشاركون التزامهم بأهداف الثورة السورية ورفض تقسيم البلاد.

ناقش المؤتمر معركة شرق الفرات وتأييدها، تلك المعركة التي قد تشنها تركيا بغية انتزاع مناطق شرق الفرات من سيطرة قوات سوريا الديمقراطية (قسد). طالب الحضور تركيا بالإسراع في شن هذه العملية العسكرية، من أجل إعادة هذه المناطق لأهلها.

قامت تركيا، وبعد السيطرة على أجزاء من ريف حلب الشرقي والشمالي بعد معركة درع الفرات، بتشكيل عدة مجالس محلية تحت إشرافها، وقامت بتوزيع المناصب داخل هذه المجالس بين العوائل وفقاً لعدد العوائل في كل مدينة ووزنها النسبي، وأن يكون الاختيار مبني على توافق عوائل المدينة.

يرفض ظافر الحسين - مدير المكتب السياسي لقبائل طي بريف حلب، والذي كان يستقبل الوافدين لاجتماع المجلس الأعلى للقبائل والعشائر العربية - مقولات أن تركيا هي المحرك الأساسي لهذا التحرك، حيث أكد لمدونة مصدر سوريا أن لا أحد فرض عليهم أن يصيغوا قراراتهم، وتأييدهم لمعركة شرق الفرات، واستلام المنطقة عقب الانسحاب الأمريكي. يقول "لو نركن للضغوطات العسكرية لما تم تهجيرنا من تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" ومن أتى بعدها من قوات سوريا الديمقراطية، التي هجرت وجرفت عدة قرى عربية بحجة انتساب أبناءها لداعش."

مضيفاً، أنه لا سلام مع الأسد إلا في محاكمته، ومحاكمة المجرمين الذين قتلوا، على حد تعبيره، أكثر من مليون سوري، وشردوا العديد من المحافظات السورية، يؤكد الظافر "لا نؤيد الطرح الإيراني ولا الروسي، الذين يسعون عبر وسطاءهم لإقناعنا به، والذي يضمن سلامتنا مقابل عودة الجيش السوري، الذي قصفنا، إلى المنطقة دون محاكمته، بل نؤيد تشكيل منطقة أمنة يعود إليها اللاجئين السوريين من البلدان التي هاجروا إليها.

قبل هذا المؤتمر بعدة أسابيع، انعقد ما يسمى "ملتقى وجهاء وشيوخ العشائر" في الحسكة في العاشر من نوفمبر/تشرين الثاني من العام الماضي، لمناقشة تهديد ما أسموه الخطر التركي على المنطقة، ومنادين بالاحتلال التركي لمناطقهم، وتدخله السافر في شؤونهم. هذا الملتقى نظّمته قوات قسد في إطار جهودها للتصدي لمحاولات تركيا التدخل في مناطق شرق الفرات. وقد أعلن المشاركون دعمهم الكامل لقوات قسد، ودعوا إلى إيجاد حل للأزمة السورية داخل سوريا، مؤكداً ضرورة حل الخلافات مع النظام السوري.

يقول الراشد - أحد أعيان عشيرة الولدة والمقيم في بلدة الطبقة بريف الرقة الغربي - في مقابلة مع مدونة مصدر سوريا عبر تطبيق واتساب "ما يسمى معركة شرق الفرات، والتي تريد تركيا شنّها على مناطقنا، لا ناقة لنا فيها ولا جمل، بل تصب

بعكس ما أراده السوريين من خلال ثورتهم التي طالبوا فيها بإسقاط النظام السوري، وأكد أن هذه المعركة تهدف للإطالة من عمر النظام السوري، والمد بعمر الأزمة التي يعيشها البلد، وبطريقة أو بأخرى تهدف لتقسيم البلاد.

أما عن علاقة عشيرته مع حزب الاتحاد الديمقراطي التي تعتبره تركيا منظمة إرهابية، ووضعت الولايات المتحدة عدد من قيادته على قوائم الإرهاب، يقول الراشد "ليست كل المناطق التي تقع شرق نهر الفرات، تسيطر عليها وحدات الحماية الكردية، فمناطق تواجدهم معروفة، وليس كل مقاتلي قوات قسد التي تدعمها الولايات المتحدة هي وحدات حماية كردية، الوحدات فصيل من فصائل قوات قسد، وليس لنا شأن بهم، واعتبارنا كهدف لتركيا هي ظلم لنا كعشائر، لا نريد الدخول بمعركة جديدة، ولا نريد خسارة أبناءنا.

ومن جانب آخر كان قد اجتمع العديد من وجهاء العشائر في المناطق التي يسيطر عليها النظام السوري مطالبين الجيش السوري بالتدخل لبسط السيطرة على مناطق شرق الفرات وضبطها وعودتها للخريطة السورية. حاول الكاتب التواصل مع أحد وجهاء عشيرة الدليم الذي يشغل منصب عضو مجلس شعب لدى حكومة الأسد والمقيم في العاصمة دمشق، لكنه رفض إجراء المقابلة بعد انتظاره لأكثر من أسبوع، بعد طلبه لنا بانتظار الرد.

الموقف من تركيا ومعركة شرق الفرات، ليس الأمر الوحيد الذي تختلف عليه العشائر والقبائل السورية، هناك أيضا من موقفهم من الانسحاب الأمريكي من الصراع في سوريا، حيث تؤيده بعض العشائر وترفضه البعض الآخر. يقول الحسين أن قرار الانسحاب الأمريكي "جيد ونؤيده ولو أنه جاء متأخراً، فالولايات المتحدة هي من دعمت المنظمات التي نرها إرهابية، كوحدات الحماية الكردية، التي هي ذراع حزب العمال الكردستاني في سورية، والتي تسعى للانفصال وتهدد أمن المنطقة".

يرى الحسين أن الولايات المتحدة لم تف بوعودها فيما يتعلق بجهود إعادة الاستقرار، في حين وفرت تركيا ظروف مناسبة، في المناطق التي تسيطر عليها في سوريا، لعودة اللاجئين، بينما فشلت القوى الأخرى، خاصة الولايات المتحدة، في هذا الأمر. يقول الحسين "إن كانت أمريكا وغيرها من دول العالم تريد عودة اللاجئين لسوريا ينبغي أن تشاهد الإدارة المدنية لمنطقة درع الفرات، وعدد العائدين إليها من السوريين، وترى المناطق التي سيطر عليها النظام السوري وقوات سوريا الديمقراطية، وتقارن كيف تدار الأمور، ونسبة عودة اللاجئين، وتقرر ما يجب أن يكون للسوريين.

يختم الحسين حديثه، بأنه داعم لطرح الإدارة المشتركة التي طرحها الأمريكان والأترك، للحفاظ على سلامة المنطقة من أي حرب قادمة، ومع أن تعود العشائر العربية متماسكة ومتعاظمة لا يفرقها حدود عسكرية.

من جانبه يرى الراشد أن المعارك قتلت الكثير من أبناء العشائر، ويرفض الانسحاب الأمريكي من المنطقة، مطالباً ببقاء القوات الأمريكية حتى مرحلة انتقالية، يتم فيها انتخاب رئيس لسوريا بإشراف الأمم المتحدة، وعودة الخريطة السورية دون اجتزاء أي قطعة منها. يختم الراشد معقياً على القرار الأمريكي: لا نريد لأمريكا الانسحاب من المنطقة.

ما سبق من اجتماعات متفرقة للعشائر العربية في عدة مناطق والمواقف المتباينة سواء بالنسبة لتركيا أو الدور الأمريكي، يشير إلى طبيعة الانقسام الحاد بين القبائل والعشائر السورية. يعود هذا الانقسام بين العشائر، بصورة رئيسية، إلى الآراء السياسية المختلفة لهذه العشائر، والضغط التي تواجهها من الجهات العسكرية المتواجدة في مناطقها. بالإضافة إلى تهجير الكثير من أبناء هذه العشائر في مناطق متفرقة نظراً لتبينهم للثورة.

إن العشائر في سوريا الخاسر الأكبر من ناحية عدد القتلى في المعارك التي جرت عبر الأعوام الماضية. لا توجد إحصائية رسمية بسبب أن القتلى من أبناء العشائر تتوزع بين عناصر قتلوا مع أو ضد تنظيم داعش، وأخرين قتلوا في المعارك مع أو ضد قوات الأسد. تختلف العشائر في مواقفها السياسية وتحالفاتها، لكن يجمعها نفس الهدف، وهو الحفاظ على وجودهم في مناطقهم والبقاء في أرضهم وبين أبناءهم.

خليفة خضر: مصور وكاتب سوري، وكان معتقل سابق في سجون تنظيم داعش. قام بتأليف كتاب بعنوان "قصص من سجون داعش في سوريا". فاز خضر بجائزة سمير قصير لحرية الصحافة والاعلام في عام 2017.